

.. وَأَتَمُّهُمْ تَقَافِنَا المَعَاصِرَةَ !

بقلم محي الدين اسماعيل

فالفكر الفاعل فعلا حقيقيا في مسيرة التاريخ ، والعنصر المولد لأكبر قضايا الانسان المتحضر ، هو ذلك الفكر الذي ينطوي على مفاهيم وقيم ومثل ومواقف ، تؤلف جميعها في ضمير المجتمع قرارا مستقرا واضحا ازاء مسالك المجتمع ووجهتها وتستهدف غاياتها ومراميها . وان هذا القرار وحده هو الذي يقدم للانسان وللمجتمع الاجوسمة الكبرى ، ويحدد طبيعة الحضارة وخصائصها .

وبهذا المعيار وحده يقاس عمق الحضارات وارتفاعها . فحضارة اميركا الراهنة ، طيفا لذلك ، لا يمكن أن تعتبر من الحضارات الكبرى في التاريخ الانساني ، لانها تفتقر الى هاتيك المفاهيم والقيم والمثل والمواقف التي يمكن أن تؤلف في ضمير المجتمع الاميريكي قرارا مستقرا ازاء الانسان ومكان الانسان من العالم ودور الانسان في التاريخ . ولقد عبر بعض كتاب اميركا ، من أمثال همنغواي ، عن هذا الافتقار المدقع ، فكتبوا تلك الاثار التي عبرت عن معنى الضياع ، والقلق غير المبدع . وتحولت مواقفهم في الحياة الى التعبير عن معان رخيصة في النجاح اليومي . فعندما أراد همنغواي أن يؤكد عظمة الحياة الانسانية وديمومتها ، لم يستطع أن يتخذ موقفا أكبر من أن يرى في كريكي ، بطل الملامة ، قوة من قوى ديمومه الحياة البشرية وقدرتها على الانجاز . هذا البطل الملام هو رمز العالم عند همنغواي ... انه رفض للضياع والقلق الاميريكي ... لماذا ؟ لان فكه قد تهشمتم فسي حلبة الملامة ، ولكنه فاز ببطولة العالم في وزن الريشة !

وبهذا المعيار ذاته ، يمكن أن نتأكد من سمو الحضارة الهندية القديمة ، لانها تنطوي على قرار مستقر مطمئن من الانسان ومن مكان الانسان في العالم وارتباطاته بالكون .

وطبقا لهذا المعيار أيضا ، يمكن أن نستجلي الخصائص الذاتية لفكرنا العربي المعاصر ، ومدى قدرته هذا الفكر على تقديم تلك المواقف والقيم والمثل التي يمكن أن تؤلف في ضميرنا العربي قرارا مستقرا نابئا مطمئنا من الانسان ومن العالم .

وبكلمة أخرى ، هل كان يوسع ثقافتنا العربية المعاصرة أن تكون أساسا لاتخاذ مثل هذا القرار ، بعد أن ففدناه منذ أن بدأ عصر القرية عن الذات العربية ، في عهود التخلف والانحطاط ؟

ان الذات العربية ، في أعلى صورها وحالاتها ، وبقرارها الذي اتخذته على أساس من قيمها ومثلها ومواقفها وارتباطاتها بالصالح وبالانسان ، كانت تملك القدرة على التحصن ضد الغزوات لترد على جميع تلك القوى الغازية التي تعرضت لها في تاريخها أكثر من مرة . وليست الذات العربية بدعا في ذلك ، فالشعوب الكبرى ذات الحضارات العظيمة تمتلك جميعها مثل هذه الذات المتحصنة التي تمكنها من خوض كل معركة لرفض التلوث الذي يمكن أن يصيب نقاءها . والقرار الذي نعينه هنا ، ليس فلسفة منهجية - كما قد يظن البعض - وليس تعبيراً عن الحكمة التي قد تختزنها الشعوب فسي ضميرها فيبدو اثرها في المسلك وفي الاداب وفي الفنون ، كما انه ليس حالة من الحالات النفسية للامة ، بل هو هذه جميعها في آن ، اذ تشترك جميع قوى الامة وقدراتها وملكانها من عقل وانفعال واحساس وضمير وارادة ، في اتخاذ هذا القرار . وتقاس طمأنينة الحضارات ورسوخها وثباتها بالقدر الذي يكون عليه هذا القرار من العمق والسعة والشمول .

لقد غدا من البديهيات القول بدور الفكر في مسيرة التاريخ وصوغ سننه التي تبدو وكأنها نمط من الانماط الجبرية أو الحتمية ، أو ضرورة من الضرورات المفروضة التي لا تقبل النقض ولا الإبرام . على أن دور الفكر أيضاً ليس أقنوما من الاقنيم المطلقة ، في حده ذاته ، وليس القول باثره الحاسم في مسيرة التاريخ استعلاء على نظرية من النظريات أو نقضا لها ، بل هو مواجهة واضحة من خلال المشاهدة الحية للوحة التاريخيية الكبرى .. لوحة التاريخ البشري .

ان سقوط الدولة الرومانية الهائلة ، ذلك السقوط الريب الذي ترك فراغا هائلا في العالم القديم ، لم يكن سوى ثمرة ذلك التحول الكبير في الفكر الروماني ، بعد أن تصارعت وتفاعلت شتى الافكار وانتهت بدخول الفكر المسيحي آتى رحاب تلك الامبراطورية الكبرى .

وان بروز القوة العربية التي اقامت تلك الدولة الاسلاميية الشاسعة لم تكن شيئا غير نتاج لتلك الثورة الفكرية والروحية الكبرى التي قامت بعملية تصفية جذرية واسعة لجميع القيم والمعتقدات والمفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي كان يقوم عليها المجتمع العربي انذاك .

وقل مثل ذلك في جميع الانقلابات والتحويلات التاريخيية فسي جميع العصور .

ولكن الفكر من حيث هو مواجهة للواقع ، بل ولادة من الواقع وولادة للواقع سواء بسواء ، لا يقفز الى الوجود بفتنة دون أن تتم جميع عمليات الاخصاب والحمل والمخاض . وهنا يخطيء - مثلا - أولئك الذين أعجبوا وسحروا بحضارة الاغريق الزاهرة المتألقة ، ومنهم ريتان ، ورأوا فيها قفزة انسانية هائلة لا تكاد تسبقها ارهاصات التبرير التاريخي . أنهم في ذلك ينسون كفاح الاسانية الطويل ، على مدى أربعين قرنا أو تزيد ما بين الفرات والنيل قبل بزوغ الفجر الاثيني .

والفكر العربي ، في أعلى حالاته وصوره ، كان نتاج عملية طويلة انتهت باعلان استقلاله الذاتي . ولكي يعلن استقلاله الذاتي بجميع مفاهيمه وتصوراته وقيمه ومثله ازاء الانسان والحياة والكون ، بدأ بمحاولات جادة مسؤولة لفهم واستيعاب قصة القلب والعقل الانسانيين من الجذر ، منذ أن بدأ العرب بالتعرف على مدارس النساطرة واليعاقبة في الرها ونصيبين وانطاكية والاسكندرية ، ومنذ أن بدأوا بنقل الفكر الاغريقي وطرائق التأمل العقلي . ومنذ أن حققوا الصلة بمدارس النساطرة في مجالات الطب والعلوم الطبيية ، ومدارس اليعاقبة للتعرف على الفكر الافلاطوني والفكر الافلوطيني ، ومدرسة جند نيسابور على الفكر الفارسي القديم ، ومدرسة الاسكندرية للتعرف على علوم الكيمياء والفلك والتنجيم والرياضيات ، ومدرسة حران للتعرف على الفكر الوثني المرفوض عقيدة وروحا من قبل عرب الجزيرة .

هكذا ولد الفكر العربي ، من خلال مناظرات طويلة معمقة ، مع جميع مدارس الفكر انذاك ، فتمثل ما شاء أن يتمثل ، ورفض ما شاء أن يرفض بكل جرأة وبسالة ودون أن يحس بالهزيمة أمام أعلى صور الفكر الحضاري .

وهنا لا بد لنا أن نتساءل : الى أي مدى أسهمت ثقافتنا المعاصرة في تكوين هذا القرار ؟ فمن هنا ، وهنا فقط ، سيكون بوسعنا أن نقوم ثقافتنا هذه ، دون أن نجور على أي معيار من المعايير .

ان كاتبها هو الدكتور جميل صليبا قد حاول أن يبحث الفكر الفلسفي في الثقافة العربية المعاصرة خلال المائة عام المتصرمة ، فرأى ان : « النهضة التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر قد تميزت بطابعها الادبي قبل كل شيء » . وحاول أن يستكشف أسباب ذلك فزأ خلو الثقافة العربية المعاصرة من الفكر الفلسفي الى جملة من الاسباب منها - على رايه - : « ان النهضة الادبية في تاريخ الحضارة متقدمة على النهضة العلمية والفلسفية » . ذلك سبب اول ، ثم عدد ثلاثة أسباب أخرى ، منها وقوف الفكر العربي ازاء الفلسفة في عصور الانحطاط موقفا سلبيا لان المشتغل بالفلسفة كان يتهم فيها بالروق من الدين ، ومنها اتصاف الدراسات الفلسفية بالتجريد ، وبعد مصطلحاتها الفنية عن الالفاظ السائفة في أساليب الابداء ، ومنها ايضا انتشار الجهل في المجتمع .

فهل بوسعنا ، حقا ، أن نقبل هذه الاسباب التي حددها الكاتب لخلو حركتنا الثقافية المعاصرة من العناية بالفلسفة ، هذا الميدان الشاسع من ميادين كل حركة ثقافية ؟

ان القول بأسبقية النهضة الادبية في تاريخ الحضارات على النهضة الفلسفية بالذات ، وان كان قولنا شائعا ، الا ان وقائع التاريخ الحضاري لجميع الامم والشعوب ، تنقصه جملة وتفصيلا .

خذ الحضارة الاغريقية مثلا ، فهل يصح فيها ذلك ؟

ان العصر الذهبي للثقافة الاغريقية ، كان في عصر بركليس ، وهي الفترة التي عرفت مع شيء من التجاوز الضروري في طرفيها ، أسكيلوس (٥٢٥ - ٤٦٦ ق.م) أبا التراجيديا الاغريقية وصفوكليس (٤٩٥ - ٤٠٦ ق.م) وأرسطوفان (٤٤٤ - ٣٨٥ ق.م) ويوربيديز (٤٨٠ - ٤٠٦ ق.م) ، كما عرفت هذه الفترة سقراط أبا الفلسفة الاغريقية (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) ، وقبل ذلك عرفت اليونان انكسمندر (٦١١ - ٥٤٧ ق.م) وطاليس المليطي (٦٢٤ - ٥٦٥ ق.م) أول من شق طريق البحث العلمي في ظواهر الكسوف والخسوف . وهكذا يبدو من التجربة الاغريقية ، ان النهضة الفلسفية يمكن أن تعاصر النهضة الادبية ، بل وقد تتقدم عليها زمنيا .

وما ينطبق على الظاهرة الاغريقية ، ينطبق على كثير من الثقافات ومنها الثقافة الفرنسية . فان نظرة واحدة الى السجل التاريخي لها ، يرينا أن عصرا واحدا قد ضم ديكارت وباسكال ومالبرانش وراسين وكورني وموليير وكثيرا غيرهم من الفلاسفة والكاتب والشعراء والمفكرين .

وما يمكن أن يقال في الحضارتين الاغريقية والفرنسية يمكن أن يقال في أية حضارة أخرى كانت لها القدرة على أن تنجب الفلاسفة والابداء على حد سواء .

ومن البديهي اننا لا نستطيع أن نحتج بالحضارة الروسية السلافية مثلا ، ذلك لان هذه الحضارة لم تنجب ، في جميع عهودها ، غير اللاهوتيين والتنصوفة والكاتب ، وندر أن أنجبت فيلسوفا واحدا ذا شأن . ولكنها استطاعت أن تعبر أقوى تعبير وأروع وأعمقه عن طريق الادب والتصوف . كما اننا لا نستطيع أن نحتج بالحضارة الانكليزية السكسونية التي عبرت عن ذاتها بالشعر والمسرح ، ولكن العهود التي ظهر فيها فلاسفتها ومفكرها ، ظهر فيها أيضا شعراؤها وكتاب مسرحها ومثلوها .

اذن فخلو حركتنا الثقافية من الفكر الفلسفي ، لا يمكن أن يرجع به الى مثل هذا الزعم القائل بأسبقية الفاعلية الادبية على الفاعلية الفلسفية في جميع الحضارات .

أما السبب الثاني الذي يصفه الدكتور صليبا تبريرا لخلو حركتنا الثقافية المعاصرة من الفكر الفلسفي ، وهو خشية اتهام المشتغل بالفلسفة بالروق من الدين ، ولان التهمة بالالحاد - على

حد قوله - كانت تسيير جنبا الى جنب مع تعاطي الفلسفة علما وتعلما ... اقول ان هذا السبب لا يمكن أن يأخذه مأخذ الجد أي من المطلعين أسر اطلاع على عناصر الثقافة عندنا في القرن التاسع عشر وما قبله من عصور الانحطاط . فلقد كان الإسافوجي لفرغوريوس والمنطق الارسطوطاليسي وكتاب الشفاء لابن سينا وفصل المقال لابن رشد وأمثال هذه الكتب تدرس بشكل مشروع في جميع حلقات الدرس ، وكان المثقف آنذاك لا يترك حلقة الدرس الا بعد أن يتم استيعاب هذه الكتب .

وأما بالنسبة لاتصاف المصطلحات الفلسفية بالتجريد ، وتفشي الامية في المجتمع ، واعتبارها سببين لخلو حركتنا الثقافية المعاصرة من الفكر الفلسفي ، فلا أظن ان المصطلحات الفلسفية لم تتصف بالتجريد يوما من الايام أو في حضارة من الحضارات ، ولم يتعد عن الصيغة الادبية ، ومع ذلك فقد عاشت الفلسفة والى جانبها الادب ، كما اني لا أظن ان نسبة التعليم في فرنسا في القرن السادس عشر كانت أعلى بكثير من نسبة التعليم في أي بلد عربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ومع ذلك فقد أنجبت فرنسا عددا كبيرا من الفلاسفة من النسق الرفيع ، في القرن السادس عشر ، وحتى ما قبله .

وان قال قائل بأن الامية ، أية أمة ، قد لا يقدر لها أن تنجب الفلاسفة والمفكرين للتعبير عن ذاتها ، وعن حضارتها ، قلنا بأن ذلك أمر مقبول ، فلا ريب ان هناك بعض الحضارات قد عبرت عن ذاتها بطرائق أخرى غير الفلسفة ، وان الفلسفة بمبناها المنهجي المعروف ليست شرطا من شروط الحضارات الكبرى . فالامة ، أية أمة ، تعبر عن ذاتها وعن أشواقها وعن بصورتها ومثلها وقيمها بالاسلوب الاوفى بالنسبة اليها .

فالاغارقة ، مثلا ، قد برزوا في كثير من الميادين من شعر وفلسفة ومسرح ونحت ، وان تخلفوا ، نسبيا ، في فنون العمارة والرياضة التي

شعر

من منشورات دار الاداب

٢٥٠	للشاعر القروي	الاعاصير
٣٠٠	لفدوى طوفان	وجدتها
٣٠٠	»	وحدتي مع الايام
٢٥٠	»	اعطنا حبا
٣٠٠	لعبد الباسط الصوفي	ايات ريفية
٢٠٠	لفواز عيد	في شمسي دوار
٢٠٠	لهلال ناجي	الفجر آت يا عراق
٢٠٠	لعنان الراوي	المشائق والسلام
٢٠٠	لخالد الشواف	حدا وغناء
٢٠٠	لمحمد الفيتوري	عاشق من افريقيا
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	اخلام الفارس القديم
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	اقول لكم
٢٠٠	لمعين بسيسو	فلسطين في القلب
٢٠٠	لحسن النجمي	كلمات فلسطينية
٢٠٠	للدكتور خليل حاوي	بيادر الجوع
٢٥٠	لعبد الوهاب البياتي	سفر الفجر والثورة
		الناس في بلادي (ط . جديدة)
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	
٣٠٠	لابراهيم محمد نجا	الحياة الحب

العربي قد قدم عدداً من الشهداء في مختلف عصور ازدهاره ، ولم ترهبه اتهامات السوق .

وهكذا فانك لن تستطيع ان تتصور الروح العربية حقاً ، دون ان تتعرف على ابن رشد وابن سينا والفارابي والمنبجي والمري وابسن خلدون وابن طفيل والجاحظ واخوان الصفا وابن عربي والغزالي وابي نواس وابن الفارض ... فالفلسفة والفنون الادبية دعمان رئيسيتان في الحضارة العربية ، وهما اهم مما تحاول ان تفره في الازهان بعض المحاولات الاستشراقية الخبيثة من ان العمارة العربية الاسلامية وحدها هي اعظم تعبير عن الروح العربية والحضارة العربية ، مع ان العمارة العربية الاسلامية ليست سوى تطوير للفن القوطي ، والفن القوطي ليس سوى تطوير للفن الروماني .

وهنا نبلغ النقطة التي ينبغي ان نطرح فيها تساؤلاً ملحاً حول غياب الفكر الفلسفي في حركتنا الثقافية المعاصرة .

ويمس الدكتور صليبا جانباً من الحق ، في بحثه عن (الفكر الفلسفي في الثقافة العربية المعاصرة) عندما يشير الى الفرق بين موقف العرب المحدثين ازاء الفلسفة الاوروبية وموقف العرب ازاء الفلسفة اليونانية ، فهو يرى ان المحدثين قد ترجموا الكتب الاوروبية لرغبتهم في ان يكونوا للاوروبيين انداداً ، على حين ان القدماء ترجموا الكتب اليونانية لرغبتهم في الدفاع عن العقائد اليمانية . ذلك ما يراه الدكتور صليبا ولكنه يكون اقرب الى الدقة لو انه قال ان المحدثين قد ترجموا الكتب الاوروبية تحت وطأة مركبات النقص والاحساس بالهزيمة امام الفكر الاوروبي بعيداً عن حرية الاختيار الصادق المسؤول، اما القدماء فقد ترجموا الكتب اليونانية وغيرها باحساس من ضرورات العقيدة التي كانوا يحيونها باصالة وصدق ، وبحثنا عن قرار نهائي ازاء الانسان والعالم والكون .

ان القدماء ، لم يبدأوا بترجمة الفكر الاغريقي تحت اقبال مركبات النقص ، ويخطئ من يظن انهم ترجموا الفكر الارسطوطاليسي لمجرد ان يشتوا عقائدهم اليمانية . ان معظم ما وصل الى القدماء من الفكر الارسطوطاليسي قد تمت ترجمته خلال المائة الاولى من العصر العباسي ، كذلك تمت في هذه المائة الاولى ترجمة معظم ما راوا ان من الضروري ترجمته من الافلاطونية الجديدة وبعض محاورات افلاطون وجميع ما كتبه جالينوس . ولم يقتصر القدامى على ترجمة الفكر الارسطوطاليسي والفكر الافلاطوني وما وصل اليهم من علم الطب ، بل انطلقوا محاولين التعرف على اهم جوانب التراث الانساني في ذلك الحين ، فاهتموا بالازياج وعلم الفلك وما كتبه الهنود في ذلك ، فنقلوا كتاب «السوهانتا» وهو الكتاب الذي عرفه العرب باسم «سندهند» اي الدهر الدهر او دهر الدهور - كما يقولون - وتعرفوا على طرق حساب الاجرام السماوية ، ونقلوا كتب الرياضي الاغريقي ذيوفانتس في علوم العدد والحساب ، كما نقلوا كتاب المجسطي لبطليموس ، وناقشوا ذلك كله ولم يخضعوا لمشاعر الهزيمة امام هذا الفكر والمجالات الراحية من المعارف والعلوم ، ويكفي ان نشير الى ان البيروني ، بعد ذلك ، قد كتب كتاباً ناقش فيه وجهة نظر الهنود في علم الازياج وعلم الهيئة بعنوان « ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة » .

وعلى اية حال ، فان القدامى قد اتصلوا بالتراث الحضاري القديم لجميع الامم ليعمقوا التفكير في خلق السموات والارض . اما نهضتنا الثقافية المعاصرة فكانت محض تظاهرات بزعم ان نكون انداداً للاوروبيين . ومن هنا تصدق ملاحظة الدكتور صليبا من ان انتاجنا في تاريخ الفلسفة متقدم على انتاجنا في الفلسفة العامة وفلسفة العلوم ، والدليل على ذلك غزارة الدراسات التاريخية وقلة الدراسات النظرية .

أخوها عن مصر وآشور ، ولم يدعوا شيئاً ذا أهمية كبيرة فسي ميدان التشريع ، وذلك على العكس من الرومان الذين أبدعوا فسي فون العمارة وفي التشريع . وحضارة الهند القديمة (الهندوسية) قد تميزت بأن فيها العماري الهائل الذي ما زال يدرس حتى الان كان في فجر تلك الحضارة ، والحضارة الجرمانية قد خلت أو تكاد من فنون العمارة والنحت والرسم التي امتازت بها ايطاليا ، بينما تفوقت في فن الموسيقى وفي الفلسفة .

ولكن مهما تعددت الاساليب والطرائق فسي التعبير عن روح الحضارة ، فان حقيقة واحدة كبرى تظل على ما هي عليه ، تلك هي ان الحضارة الكبيرة يصدر عنها فكر كبير . وليس الحق المطلق هو مقياس الفكر الكبير ، بل المقياس هو الاصالة والحماس ، هذان العنصران اللذان تصدر عنهما جميع مولدات العمل العظيم . فالرسامون في عصر النهضة قد أبدعوا أيما ابداع في رسم الخوارق والعوالم الاسطورية والخرافات ، مما ترفضه روحنا المعاصرة في الوقت الذي لا نملك فيه الا الخشوع امام تلك المبدعات الفنية الكبرى . واننا لنعجب لتلك المبدعات لما تنطوي عليه من اصالة وحماس عميقين ، ولكن أي فتان معاصر يمرض نفسه للسخرية لو أراد ان يحتذي أساليب أولئك الفنانين .

ونعود فنقول ان من الحق ان يقال بان الابداع الفلسفي ، بمعناه المنهجي ، ليس شرطاً من شروط الحضارة الكبيرة ، ولكن يبدو من استعراض الفاعليات الحضارية عند العرب ، ان الفلسفة كانت من اهم قوى التعبير عندهم . فالحضارة العربية في اعلى صورها وارفح حالاتها ، كانت تأخذ بالفكر الفلسفي تعبيراً عن ذاتها ، بالإضافة الى الافصاح عن روحها بالشعر والانشاد . ولقد انجبت كبر فلاسفتها ومفكريها مع اعظم شعرائها ومنشديها في عهود واحدة ، كما ان الفكر

انتظروا منشورات

دار المصراحي

مؤسسة ثقافية

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس الغرب - ليبيا

شارع جدة المتفرع من شارع الاستقلال

رقم ١٠ - ص. ب ٢٥٠٠

دار الطليعة تقدم

حرب العصابات تعبويتها الأساسية وعملياتها

تأليف

ماو تسي تونج

ترجمة

ناجي علوش

كتاب عملي يقدم دروسا هامة في الكمان واختيار
المواقع وكل القضايا العملية التي تهم رجال العصابات

*

مختارات جديدة

١٩٥٢ - ١٩٦٧

في مقاومة العدوان الاميركي ومن اجل الخلاص الوطني

تأليف

هو تشي منه

ترجمة

منير شفيق

*

مدخل الى الاستراتيجية العسكرية

تأليف

الجنرال اندريه بوفر

ترجمة

اكرم ديري والهيثم الايوبي

اول كتاب عسكري يترجم الى العربية يقدم معلومات
واضحة غنية عن الاستراتيجية العسكرية

منشورات دار الطليعة - بيروت

ص ١٨١٣ ب ٠

اما بصدد اضطراب النقل وفوضاه وغموض المصطلحات الفنية وضحالة
الابحاث فجميعها تؤكد هزيمتنا امام الفكر الغربي ، وان المحاولات
القليلة التي رأيناها في الآونة الاخيرة لخلق فكر عربي مستقل
استقلالاً ذاتياً ، لا تذكرنا بشيء سوى بتلك الهزيمة المنكرة امام الفكر
الغربي بالذات .

انه ليس بالوسع ان نستعرض هنا جميع تلك المحاولات لندلّل
على ضالة المردود الفكري في حركتنا الثقافية المعاصرة ، ولكن بالوسع
ان نضرب المثل بالاتجاه الفكري الروحي الذي حاول ان يضيف اليه
شيئا مذكورا احد المشتغلين بالخلل الفلسفي في حركتنا الثقافية
المعاصرة ، وهو الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي بدأ بتعريف الجيل
العربي بالفلسفة الوجودية بعد ان كتب عنها وقدمها الدكتور طه حسين
في مجلته التي كان يصدرها باسم « الكاتب المصري » .

ان محاولات الدكتور بدوي ، وهي افضل محاولات عربية معاصرة
على الاطلاق ، في هذا الميدان قد اتسمت في كثير من الاحيان بالساذجة
والنقل السريع ، وان معظم ما كتبه في التعريف بالفكر الغربي كان
يتسم بالانفعالات المراهقة الطائشة ، وان من يقرأ قصة « هموم
الشباب » التي كتبها تحت وطأة الهزيمة المنكرة امام ضغط الفكر
الغربي ، يدرك تماما وبوضوح معنى قولنا ان ممثلي حركتنا الثقافية
المعاصرة قد عاشوا تحت انقال مركبات النقص ووطأتها الراضحة ،
وسيتساءل قارئوها مي : احقا كان كاتبها جادا عندما كان يتحدث عن
حقائق تشبه واشينجتون التي يحتاج اليها الجيل العربي المعاصر ، ام
هي محض الهزيمة النكراء ولا شيء سواها !

قد يقال ان الدكتور بدوي من اولئك الذين اتصلوا بافكار
كريكفارد وتشه واشينجتون وسارتر وولكه وتأثروا بها ، والتاثر امر
مباح ومشروع . ان قيل ذلك ، وهو قول حق على ظاهره ، قلنا ان
التاثر لا يعني ، على الاطلاق ، النقل والهزيمة وضياع الذات . ان
التاثر امر مباح ومشروع ، بل هو ضروري ومحتوم في جميع حركات
الفكر وفي كل مجالات الحضارة ، ولكن التاثر امر غير النقل والهزيمة
وضياع الذات . فنحن نعلم جيدا ان تولستوي قد تأثر في مطلع شبابه
بشارلس ديكنز ، وان ايليوث قد تأثر بالفكر الارسطوطاليسي وان
المتنبي قد تأثر بأبي تمام ، ولكن واحدا من اولئك لم ينقل عن الاخر .
فالتاثر يعني الصلة الروحية التي من شأنها ان تغني قرار الانسان
النهائي في مصلاته الانسانية والكونية . ولكن من المؤسف ان تأثرنا
المعاصر ما يزال بدائيا ، على سنة التاثر في عصور التخلف والانحطاط ،
عندما كانت بلاغة الكاتب تقاس بكثرة مقتبساته وتضميناته من القرآن
الكريم واداب الاوائل ، مع ان اولئك كانوا ابعد الناس عن التاثر بروح
القرآن العظيم وادابنا الكبرى ، وان الامر بالنسبة اليهم لا يعدو ان
يكون نقلا ساذجا مسطحا بدائيا .

وما يصدق على اولئك يصدق على حركتنا الثقافية المعاصرة التي
لم تستطع ان ترتفع الى مستوى التاثر الاصيل بالفكر الكبرى
للحضارات العظيمة من قديمة وحديثة ، من اجل ان تعمق وتفني قرارها
الكبير ازاء الحياة والكون .

اننا اليوم نواجه انفسنا باخص ما تكون المواجهة ، وبكل ما فيها
من هوان التجربة المخففة واحتمالاتها ، والدرب التاريخي الذي نجتازه
لا يحتمل قط مهرجانات التضليل التي شاركنا فيها جميعا ، فغشنا
جميع تناقضات العالم دون ان نستشعر وخزا من ضمير ، او احساسا
بالتزام .

ولعل يوسعنا ، بعد ذلك ، ان نعالج جوانب هامة اخرى من
جوانب حركتنا الثقافية المعاصرة .

محيي الدين اسماعيل